قارة الرصيف في القرن الثالث عشر :

# الشيخ شامل

زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

[ تتمة ]

ولما أبى الشيخ شامل التسليم اقتحم الروسيون الحصن من الخلف ، واستطاعوا التسلل إلى داخله ، فانسحب الشيخ شامل إلى مسجد الحصن وواصل القتال . وهنا طاب الروسيون منه التسليم للمرة الثانية ، ووعدوه — إن هو سلم نفسه — أن يسلموه هو ومن معه إلى خليفة المسلمين في القسطنطينية من غير أن يصيبهم أذى .

وكان لهذا العرض الأخير فعل السحر في نفوس المجاهدين من إخوان الشيخ شامل ، فالان من جانبهم ، فأخذوا يحبذون التسليم ، ويلحون على الشيخ شامل أن لا يفوت هذه الفرصة النادرة ، فنزل الشيخ شامل على إرادتهم ، وسلم نفسه مع نحو عشرين شخصاً من صادق أعوانه إلى القائد الروسي الجنرال « باريا تنسكي » كان ذلك في اليوم الثامن من شهر صفر سنة ١٢٧٦ هـ ( ٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ م ) .

وبذلك انتهت هذه الثورة الاصلاحية الوطنية التي استمرت أكثر من ثلاثين سنة ، ونقل الشيخ شامل ومن معه من أعوانه وأهله وعياله إلى « بترسبورغ » — ليننغراد — عاصمة القياصرة المقدسة ، وقابل قيصر الروس إسكندر الثاني ، فرحب به القيصر وأكرم وفادته ، وأمنه وجميع من كانوا معه على نفوسهم . إلا أنه — على الرغم من الوعد الذي أعطى للشيخ شامل قبل أن يسلم نفسه — لم يسمح له بالسفر إلى خارج الحدود الروسية وألزمه بالإقامة في مدينة « كالوغا » مدة ، ثم نقله إلى مدينة « كييف » وظل على هذه الحال نحو عشر سنين .

١٠ — كان الشيخ شامل لا يفتأ يطالب قيصر الروس اسكندر الثاني بانجاز الوعد الذي وعد به قبل أن يسلم نفسه بتسليمه إلى خليفة الإسلام والمسلمين ، ولكنه لما طال به الأمد ، ولم يجد أذناً صاغية . بعث إلى القيصر يطلب منه أن يسمح له بالسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وبعد أخذ ورد . قبل القيصر أن يأذن لشامل وأصحابه بالسفر إلى الحجاز عن طريق القسطنطينية .

---

بكف « أأنا البارد القليل الأدب؟ »

ولست أدري أكان ( صاحبنا ) كما ادعى وكيل نيابة حقاً أم أنه يهوش بذلك على الناس ؟

ويأتي بعد ذلك ثالث المواقف أو ثالثة الأثافي ؛ فنحن في سيارة عامة في أحد شوارع القاهرة ، ليس فيها إلا من هو ذاهب إلى عمل أو حريص على ميعاد . وكان في المقعد الأمامي شاب كذلك تبدو عليه سيماء الهدوء والرزانة فطلب إلى السائق الوقوف بالسيارة لينزل ، فقال السائق « ما فيش محطة هنا » فقال الشاب « محطة إيه ؟ إسمع . نزلني » ؛ ولم يسمع السائق ولم يقف ؛ فصكه الشاب على صدره صكة جمع فيها كل تحمسه وأفرغ كل غيظه وهو يقول « استنى يا حمار »

ووقف السائق سيارته والتفت نحو الشاب وفي وجهه مثل نظرات المجنون ، فقال له الشاب « إوع تتكلم ... أتدري من أنا ؟ أنا وكيل نيابة ... تعرف شغلك بعدين »

ووقف المحصل بينهما يخشى أن يفضي الأمر إلى شر خطير والسائق يقول إفرض انك حتى رئيس نيابة ... تضرب الناس بدون سبب ؟ » والركاب يتفرجون وما فيهم إلا من ضاق ذرعاً بهذا الصلف وبهذه الوقفة التي لا يدري أحد متى تنتهي ؛ وأحسست أنا ثلاثة أمثال ضيقهم وقد شهدت المنظر ثلاث مرات

وكان السائق هو القابض هذه المرة ، إذا أنه لم يجد متنفساً لغيظه إلا أن يقسم يميناً بالطلاق ألا يدع هذا الأفندي إلا في القسم ولو قطعت رقبته ... ولم يبق محل لشفاعة الشافعين ، بعد أن نطق السائق بهذه اليمين . ومضينا معاً إلى القسم ، ومضينا نحن الركاب يبحث كل منا عن وسيلة أخرى يصل بها إلى حيث يريد

وبعد فأنا أؤكد لك أيها القارئ أني لم أزد شيئاً على ما شاهدت ، وإلا فإني مستعد أنا الواضع اسمي أدناه لأن أتلقى قرار القبض على بتهمة أنا والله منها بريء وهي « إساءة استعمال » قلمي أو على الأصح منظاري ...

الخفيف

وفى سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م أى بعد عشرة أعوام من تاريخ التسليم خرج الشيخ شامل من الحدود الروسية، وجاء القسطنطينية ولقى من السلطان عبد العزيز خان خليفة المسلمين ما هو جدير به من الإعزاز والتكريم ، ثم واصل سفره إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وهناك ما يبعث على الظن بأن الشيخ شاملا عرج — فى طريقه إلى الحجاز — على مصر، وأنه شهد حفلات الخديو إسماعيل التى أقامها بمناسبة افتتاح قناة السويس ، أو شهد بعضها على الأقل ، ولقى من الخديو إسماعيل ترحيباً عظيما ، وتقديراً كبيراً .

وبعد أن وصل إلى الحجاز وأدى فريضة الحج فى أواخر سنة ١٢٨٦ هـ اختار المدينة المنورة للاقامة، واتخذها موطناً لسكناه

ولم تطل إقامته فى مدينة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد فارق هذه الدار الفانية ، وانتقل إلى جوار ربه ، قبيل غروب شمس يوم الأربعاء ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ ( ٢٨ مايو سنة ١٨٧٠ م ) ودفن فى البقيع بجوار قبة العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

١١ — مات الشيخ شامل بعد أن عاش نحو خمسة وسبعين عاماً ، وبعد أن ملأ الدنيا دوياً ، ونشر قضية بلاده أمام الرأى العام العالمى ، وجعل العالم كله يتحدث عن القوقاز وقضية القوقازيين ، وإذا كان لم يستطع أن يصل ببلاده إلى ما كان يرجوه لها من الاستقلال والتقدم ورغد الحياة ، فإنه بذل كل ما ملك ، ولم يأل جهداً ، ولم يدخر وسعاً حتى انتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ، ولكن أثر جهاده وتضحياته ظل خالداً ، وأثمر ثمره ، فقد تنبه الروسيون لما يعانيه أهل القوقاز من المصاعب والمتاعب وما هم فيه من سوء الحال ، وعلموا أن للقوقازيين وللقوقاز قضية لا بد من النظر إليها بعين الاعتبار .

وقدر الروسيون جهاد شامل وبسالته ، فأنشأوا فى « تفليس » عاصمة القوقاز العامة متحفاً عاماً لآثار القوقاز والقوقازيين وأودعوه كل ما عثروا عليه من آثار الشيخ شامل ، كالأسلحة التى كان يحارب بها والأعلام التى كان يحملها جنوده وقواده ، وبعض الوثائق والمستندات التى تبودلت بينه وبين القيادة الروسية فى القوقاز . وكان هذا المتحف ،فى الجملة ، مشتملا على كل ما وجد من آثار شامل .

وقد زار هذا المتحف ووصفه أحسن وصف سعادة رشاد بك المستشار بالمحاكم الأهلية المصرية قبل الحرب العالمية الماضية فى كتابه « سياحة فى روسيا » الذى نشره مقالات متفرقة فى « المؤيد » ، ثم جمعها فى كتاب .

وبعد الانقلاب الشيوعى فى سنة ١٩١٧ م واستتباب الأمر للشيوعيين ، وجهوا نظرهم إلى القوقاز ، وأنشأوا فيه أربع جمهوريات كان أحد هذه الجمهوريات الأربع جمهورية داغستان . وهى جمهورية ذات استقلال ... ذاتى فى شئونها الداخلية ضمن نطاق اتحاد الجمهوريات السوفياتية العام ، وكان من أهم ما عنيت به هذه الجمهورية الناشئة أن أسست متحفاً خاصاً بالشيخ شامل فى مدينة « محاج قلعة » جمعت فيه كل آثار هذا المجاهد العظيم ، والبطل الوطنى المخلص .

ويرى زائر هـذا المتحف الآن أعلاماً بالية عليها كتابات عربية واضحة مثل : « لا إله إلا الله . محمد رسول الله » و« نصر من الله وفتح قريب » وما أشبه هذا مما كان يكتب على أعلام الشيخ شامل. كما يرى الكتب والرسائل التى تبادلها مع الروسيين وهى مكتوبة بالخط العربى واللغة العربية الفصحى .

ويرى إلى جانب ذلك كله قطع الأسلحة ونماذجها المختلفة مما كان يستعمل إبان الثورة الداغستانية التى حمل رايتها الشيخ شامل أكثر من ربع قرن . رحمه الله رحمة واسعة ، وأحسن إليه ، وبل ثراه بفيض من رضوانه .

برهان الدين الداغستانى

إدارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بمجلس دسوق البلدى لغاية ظهر يوم ١٠/٧/١٩٤٧ عن توريد مواسير ظهر وأبواش حريق وخلافه وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس نظير مائة مليم بخلاف أجرة البريد .

٧٤٣٥